الطفل العربي في ظل الحروب والنزاعات المسلحة

الأسباب والأضرار والحماية

د. محمد محمود العطار *

مقدمــة:

تمثل القوى البشرية أساس التنمية والتطور في مختلف المجتمعات وعلى مر العصور، حيث يعد الإنسان أغلى ما تمتلكه المجتمعات الإنسانية متقدمة أو نامية لما يقوم به من دور في تطويرها وتحديثها؛ ولذلك فلا بُدَّ من الاهتمام باستثماره، فالتنمية البشرية هدفٌ أساسُ للتنمية المتكاملة، والأطفال هم مصدر الثروة في المجتمع على المدى البعيد فهم جيل المستقبل، ويعد الاهتمام بهم ورعايتهم من الضروريات الأساسية لخلق جيل منتج قادر على العطاء (العطار، ٢٠٠٦م، ص١٤٥).

ولقد اهتم العالم بالطفل؛ فنجده قد خصص يومًا للاحتفال بالطفل وصدر إعلان الطفل الذي أُعتُبر اعترافًا من المهتمين بشئون الطفولة بأن للطفل حاجاتٍ أساسية خاصة به؛ منها حقه في الحياة، وفي أن ينعم بطفولته، وحقه أن يعيش في جوٍّ تسوده المحبة، والتفاهم لتكون له شخصية سويَّة، وحقه في أن يحظى بالوقاية المناسبة كي ينشأ نشأة طبيعية بدنيًا واجتماعيًا وروحيًا.

وتقوم بعض المؤسسات في الدول المتقدمة بدفع تعويض مادي للطفل في حالة تعرضه للحوادث والإصابات، وإذا كان هذا هو الحال في الدول المتقدمة، فما التعويض الذي سيحصل عليه أطفالنا في فلسطين والعراق ولبنان واليمن والسودان وسوريا..؟! هؤلاء الأطفال الذين وُلِدوا في جوٍّ يسوده الظلم والقهر وعدم الأمان، فأطفالنا في فلسطين لا يملكون إلا الحجارة من أجل الدفاع عن وطنهم وفي المقابل يجدون رصاص الأعداء (العطار، ٢٠٠٣م، ص١٢١).

وتشكل الحروب والنزاعات المسلحة خطرًا كبيرًا على الأطفال، فهي تحرم الأطفال من حقهم

* أستاذ رياض الأطفال المساعد – كلية التربية – جامعة الباحة– السعودية.

الطبيعى في العيش في أمان، وتحرمهم من طفولتهم، كما تحرمهم من ذويهم وبيوتهم وتعرض حياتهم للخطر.

ولقد أصبحت الحروب والنزاعات المسلحة أمرًا مخيفًا في العالم العربي؛ خاصة في ظل الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية؛ وخاصة فلسطين. وكذلك في ظل الاحتلال الأمريكي – البريطاني للعراق والذي يعد بحق أُمَّ الكوارث بالنسبة إلى كل العرب وليس بالنسبة إلى أطفال العراق وحدهم؛ وكذلك ما قامت به إسرائيل مؤخرًا بالتعدي على لبنان وما حدث في شهر يوليو ٢٠٠٦، حيث كان العالم على موعدٍ مع مجزرة "قانا" الثانية التي راح ضحيتها أكثر من ٦٠ شهيدًا من الأطفال والنساء والشيوخ، حيث كانوا نيامًا في منزلٍ لجئوا إليه بعد أن هدمت إسرائيل منازلهم وشردتهم (مجلة نصف الدنيا، ٢٠٠٦م، ص٤).

إن الحروب والنزاعات المسلحة وما يحدث للأطفال في فلسطين والعراق ولبنان واليمن والسودان وسوريا، يضع الضمير الإنسانى وجهًا لوجه أمام مسئوليته الأخلاقية.. فكيف يقبل الضمير الإنساني القذائف التي تنهمر في عشوائية على المدنيين العُزْل، لتحصد أرواح الأبرياء وتدفن تحت الأنقاض عشرات الجثث لأطفال ونساء وشيوخ، فالأطفال هم أول ضحايا الحروب التي تدور رحاها في العالم، وكثيرًا ما يتم استهدافهم من خلال استغلالهم.

النزاعات المسلحة.. الأرقام والإحصاءات:

أشار إحصاءٌ إلى أن البشرية شهدت منذ عام ١٤٩٦ ق. م.، وحتى عام ١٨٦١ ميلادية ٢٢٧ سنة من السلام، في مقابل ١,١٣٠ سنة من الحروب على مدار فترة زمنية طولها ٣,٣٥٧ عامًا، وإذا تم مد تلك الفترة الزمنية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية يمكن القول بأن البشرية شهدت ١٤,٥٣١ حربًا بمعدل ٢,٦١٣٥ حربًا كل عام (يوسف، ٢٠٠٢م، ص١٥٩).

وفي الفترة من ١٩٨٩ حتى عام ٢٠٠٠، كان هناك ١١١ نزاعًا مسلحًا في ٧٤ موقعًا حول العالم، ويصنف الخبراء هذه النزاعات طبقًا لحدتها، فبعضها صغير (١٥ نزاعًا عام ١٩٨٩) ارتفع إلى ٢٣ عام ١٩٩٢ وانخفض إلى ٩ عام ٢٠٠٠، أما النزاعات التي يمكن وصفها بأنها وصلت إلى مرحلة الحرب، فقد بلغ عددها ١٨ عام ١٩٨٩ انخفضت إلى ١٢ عام ٢٠٠٠، وبالنسبة إلى جميع النزاعات فقد وصل عددها في هذه الفترة إلى ١١١ نزاعًا انخفضت إلى ٤٧ عام ١٩٨٩، انخفضت إلى ٣٣ نزاعًا عام٢٠٠٠ (السعدي، ١٩٩٥م، ص١٣٢).

ويؤكد التقرير السنوى لصندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة "اليونيسيف" أن الأطفال أصبحوا وقودًا للحروب في أكثر من (٣٠) نزاعًا مسلحًا شهده العالم في أفريقيا وحدها منذ عام ١٩٧٠؛ نتيجة القصف والألغام المضادة للأفراد وعمليات تجنيد الأطفال، بينما تشير تقارير ورشة العمل التي ينظمها المركز الإقليمي للأمن الإنساني بالمعهد الدبلوماسي في الأردن في ٢٦ أغسطس، إلى إنه خلال الـ ١٥ عامًا الماضية قُتل أكثر من مليونَيْ طفلٍ في نزاعات مسلحة في العالم، كما أُصيب قرابة ستة ملايين آخرين، بعضهم كانت إصابته بالغة، وبعضهم عانى إعاقاتٍ دائمة. وهناك عشرة آلاف طفل تعرضوا للأذى النفسي والرعب من جرَّاء هذه النزاعات والحروب (مجلة المرأة اليوم، ٢٠٠٣م، ص٣٣).

ولقد تحققت الأمم المتحدة من وقوع ما يزيد على ٢١,٠٠٠ من الانتهاكات الجسمية لحقوق الأطفال في الفترة من يناير إلى ديسمبر ٢٠١٧م، فالأزمات التي تشهدها اليمن وسوريا وجنوب السودان أدت إلى زيادة خطيرة في عدد الانتهاكات الجسمية التي أمكن التحقق منها، كما تعرض أكثر من ١٠,٠٠٠ طفل للقتل أو التشويه في عام ٢٠١٧م، وقد ازدادت الضحايا بشكل كبير في العراق، بينما ظلت مرتفعةً بشكلٍ غير مقبول في سوريا.
https://undocs.org.ar/s

وفي اليمن، وثقت الأمم المتحدة أن ١,٤٢٧ طفلًا قُتلوا أو شُوهوا في هجمات، منها هجوم لا يمكن قبوله على حافلة مدرسية في صعدة. كما تعرضت المدارس والمستشفيات لهجمات متكررة أو استُخدمت لأغراض عسكرية؛ مما حرم الأطفال من حقوقهم في التعليم والرعاية الصحية. وهذا يزيد من تأجج الأزمة في بلدٍ يموت فيه كل (١٠) دقائق طفل بسبب أمراض يمكن الوقاية منها، ويعاني ٤٠٠ ألف طفل سوءَ التغذية الحاد الوخيم https://www.unicef.org/s.

إن الحروب والنزاعات المسلحة تنتهك جميع حقوق الطفل بما فيها الحق في الحياة، والحق في الوجود ضمن عائلة ومجتمع، والحق في الصحة والحق في النموّ، والحق في الرعاية والحماية.

ظاهرة الحرب.. التعريف والمفهوم:

الحرب لغةً هي القتال بين فئتين. وورد ذكر الحرب في القواميس المختلفة: فالحرب في "المَوْرِد" تعني حالة الحرب أو فن الحرب، وهي تعني العداء والخصام والتصارُع. وفي قاموس "أكسفورد" تعني كلمة الحرب War التحارُب، وجاء حرب بلا هوادة Knife to the War أي

حرب شعواء اشتدَّ وطيسُها. وفي قواميس أخرى تعادل كلمة war كلمة figth و battle وكلها على وجه التقريب تعطي المفهوم نفسه. وجاء في "الموسوعة العربية العالمية" (١٩٩٦) أن الحرب هي صراع بين مجموعتين كبيرتين تسعى إحداهما لتدمير الأخرى.

ويؤكد البعض أن الحرب بمفهومها المعاصر – نظرًا لخطورتها القصوى – باتت مرفوضة، لأنها شر مطلق يجب الامتناع عنه. وقد نادت قلة من المفكرين المُصلحين في قرونٍ خلت بوقف الحرب ونبذها، فيما كان القادة العسكريون والسياسيون ينظرون إلى الحرب على أنها عمل سياسي بوسائل مختلفة؛ أي بمعنى أنها عمل مشروع، أما اليوم فيُجمع الناس على أن الحرب أمر يجب عدم الاقتراب منه، حتى ولو كانت عادة. والجدير بالذكر أنه حتى المنافقون من الساسة والقياديين لا ينفكُّون عن التغني بمنافع السلام والأمن ومهاجمة العسكريين والمتهورين، الذين لا يترددون في خوض غمار الحرب.

ويرى "كنسي رايت" (Quincy Wrigth)، الذي يهتم بالمظهر التشريعي للحرب، أن الحرب هي الأساس القانوني الذي يتيح لجماعتين، أو عدة جماعات متعادية، أن تحلَّ النزاع بينها بقواتها المسلحة. أما " كلوڤتز" (Clouvtz)؛ فيذكر أن الحرب عمل من أعمال العنف يهدف إلى إرغام الخَصْم على تنفيذ إرادة الآخر. ويرى آخرون مثل "مارتين" (Martin) أن الحرب عبارة عن صراع بين الناس أو بين دول مستقلة، ويعرف "فون بوجلسيلاچسكي" (von Pogulslawaski) الحرب بأنها المعركة التي تشنُّها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهة لها. ويُعرِّف "لوجريت" (Legorgette) الحرب بأنها: حالة من الصراع العنيف الذي يقوم بين جماعتين أو عدة جماعات من أفرادٍ ينتمون إلى النوع نفسه بناءً على رغبتهم أو إرادتهم. واقترح "توماس بلاس" وزملاؤه في كتابهم "العنف والإنسان" تعريفًا آخر يقول: إن الحرب صراع مسلح ودموي بين جماعات منظمة، وهي صورة من صور العنف لها خاصية أساسية، هي أنها منهجية ومنظمة بالنسبة إلى الجماعات التي تقوم بها، وبالنسبة إلى الطرق التي يديرونها بها، وهي قواعد تتغير وتتبدل تبعًا للأماكن والعصور، وتكمن خاصيتها الأخيرة في كونها دامية؛ إذ إنه عندما لا تؤدي الحرب إلى تدمير حياة البشر لا تعدو أن تكون نزاعًا أو تبادلَ تهديدات (سلطان، ٢٠٠٦م، ص ص٢٦، ٢٧).

أسباب الحروب والنزاعات المسلحة:

الحروب والنزاعات المسلحة قبل ظهور النظام الدولي الجديد تعود إلى أسباب متعددة؛ منها

تعدُّد مراكز الولاء وتنازعها داخل الكثير من الدول الحديثة العهد بالاستقلال، وإلى عوامل قبلية أو عنصرية أو طبقية معينة مما ينتج عنه غياب الاتفاق القومي، وانقسام المجتمع على نفسه، وهذا الأمر يمكن أن يتطور فيه الصراع في اتجاه الاقتتال بوسائل العنف المسلح، ويضاف إلى هذا عوامل الضغوط الناتجة من عملية تحديث هذه المجتمعات؛ مما يؤدي إلى تفسُّخ الأنماط التقليدية وفي الوقت نفسه بروز قوى تقاوم التغيير والتحديث، ومن هنا ينشب الصراع، ويشتد بين القوى الجديدة التي تحاول أن تنسفه من جذوره، أو أن تحدث فيه، أو على الأقل، تغير تغييرًا راديكاليًا في المعاملة مسايرةً لمنطق التطور، وتجاوبًا مع مقتضياته، كما يمكن للصراع الداخلي أن ينفجر بسبب تفاعلات سياسية أو اجتماعية معينة، أو بسبب ضغط بعض المواقف المصيرية على القوى والأطراف في تلك الصراعات (الهيتي، ٢٠٠٣م، ص ص٤١٣، ١٣٥).

ومع أن الأسباب لا زالت عوامل للحروب والنزاعات المسلحة، إلا أن الوضع الدولي الجديد، وظاهرة العولمة، وما رافقها من تعديات قد آلت إلى ارتباكٍ في سلام الولاءات، وزيادة في التطرف والتعصب، وانحسار الفكر السياسي المستنير، ثم إلى ازدياد مشكلة النزاعات المسلحة، واشتداد أوزارها (مرسي ١، ٢٠٠٥م، ص٤٩).

ومع أن كثيرًا من صُنَّاع الحروب والنزاعات هم ضحايا أيضًا في النهاية، إلا أن الضحايا الحقيقيين هم مجمل الذين يُساقون إلى ساحاتها، ومجمل الذين يجدون أنفسهم في وسط المعارك، ومجمل الذين تدفع بهم القوى إلى النيران التي تصيب حتى أولئك الذين ليس لهم أي شأن بالنزاع، بمَنْ فيهم سَكَنة أكواخ الصفيح، الذين يحزُّ الفقر والمرض برقابهم، بل تصيب النيران الأطفال الذين لا يفهمون للنزاعات سببًا، ولا يدركون لها مبررًا.

الطفل والحروب:

إن مشاركة الأطفال في الحروب أمر ليس بجديد على التاريخ البشري، إلا أنهم كانوا يشاركون من قبل عبر القيام بأعمال مساعدة كقارعين لطبول الحرب، غير أنه من التطورات المؤسفة التي شهدتها السنوات الأخيرة زيادة استخدام الأطفال كمقاتلين. وقد شارك الأطفال حديثًا في الحروب في ٢٥ بلدًا. وتشير التقديرات إلى أن عدد الجنود الأطفال بلغ عام ١٩٨٨ فقط نحو ٢٠٠ ألف طفل، ويمكن القول بأن هناك ازديادًا مستمرًا لمشاركة الأطفال في الحروب، وذلك على الرغم من الجهود المبذولة في هذا الإطار.

ويعود جانبٌ كبيرٌ من الاستخدام المتزايد للأطفال كمقاتلين إلى انتشار الأسلحة الخفيفة كالبنادق؛ إذ تتسم هذه الأسلحة بسهولة استعمالها ورخص ثمنها وتوافرها على نطاق واسع، فعلى سبيل المثال يمكن شراء بندقية آلية في أوغندا بما يعادل ثمن دجاجة، وفي كينيا بسعر رأس من الماعز، علاوة على ذلك فإن الأطفال الجنود يتمتعون بميزاتٍ أخرى؛ منها أنه يسهُل تخويفهم وتهديدهم بحيث ينفذون ما يطلب منهم أيًا ما كان، كما أن احتمال فرارهم من ساحة القتال أقل منه بين الجنود البالغين، وإضافة إلى ذلك فإنهم لا يطلبون رواتب. كما يمكن تشغيلهم في الأوقات الهادئة نسبيًا في المخيم في أعمال الطبخ وحمل الماء. وغالبًا ما يكون الأطفال الجنود وقودًا للمعارك، فخلال الحرب الإيرانية العراقية تم إرسال الأطفال الجنود على شكل موجات إلى ساحة القتال عبر حقول الألغام. ومن ناحية أخرى، فإن انخراط بعض الأطفال في صفوف الجيش قد يكون في بعض الأحوال الطريقة الوحيدة للبقاء والعيش، ففي الصراعات الممتدة والتي ينجم عنها تفكك وتشتت الأسر وتفتت الوحدات الاجتماعية كالقبيلة أو العائلة الممتدة، تكون الوحدة العسكرية بالنسبة إلى الطفل بمثابة أسرة بديلة (قاعود وعبد القدوس وعبد الخالق، ١٩٩٩م، ص١٢).

إن الحرب تسبب الصدمات أو على الأقل تزعزع الحياة اليومية، وهي على الأرجح انتهاك لحقوق الأطفال.

الطفولة العربية خلف الأسوار:

الأطفال من أكثر الفئات تضررًا بالحروب وذلك من أوجه عديدة. فإغلاق المدارس والمستشفيات وإتلاف المحاصيل ينعكس سلبًا على النمو السويّ للأطفال. ويُجرى في الوقت الحاضر استخدام الأطفال للقتال في الحروب.

ولقد تسببت الحروب في قتل أعداد غير معروفة من الأطفال أو جرحت أو يتَّمت، ولم يَرَ ملايين آخرون عائلاتهم أبدًا. وتشير الإحصائيات أن هناك قرابة سبعة ملايين طفل معظمهم في أفريقيا يعيشون في مُخيَّمات للاجئين، وغالبًا ما يكون هؤلاء الأطفال محرومين من الهُويَّة والجنسيَّة والغذاء والرعاية الصحية والتعليم، يضاف إلى هذا العدد عدد مماثل من الأطفال النازحين من بيوتهم دون أن يعبروا حدود بلدانهم إلى بلدان أخرى، ولن يجد الكثير من هؤلاء الأطفال سبيلًا للنمو بشكل طبيعي، وكسب المهارات أو العثور على عمل أو مكان في المجتمع (عبد الهادي، ١٩٩٣م، ص ص١٢٠، ١١٩).

ويشكل الأطفال نسبة عالية من مجموع ضحايا النزاعات المسلحة، ويتفاقم وضعهم لأن النزاعات المسلحة المعاصرة غالبًا ما تستهدف المدنيين بشكلٍ مُتعمَّد، إما لغايات استراتيـجية أو لأن تدمير المدنيين هو بحد ذاته الهدف الأساس للأعمال القتالية، بالرغم من أن كل ذلك يشكل خرقًا واضحًا للقانون الدولي الإنساني. ومن المألوف الآن القول أن نسبة عدد ضحايا الحروب من المدنيين قد ارتفعت بقدرٍ كبيرٍ لتصل إلى نحو ٧٥٪ بل تجاوزت حتى هذه النسبة، ومثال ذلك ما يحدث في الأراضي العربية المحتلة من انتهاكاتٍ صارخةٍ ومريعةٍ والتي تصدر عن المحتل الإسرائيلي الصهيوني في تعامله مع أطفال الحجارة، أطفال فلسطين المحتلة، حيث يعد كارثةً اجتماعيةً وإنسانيةً خطيرةً مسكوتًا عنها، حيث يعيش جيل الطفولة في الأرض المحتلة محرومًا من أدنى حقوقه الإنسانية، حيث استبدل العدو الصهيوني بسلاسل الأرجوحة سلاسل التعذيب، وفرض عليهم أن يفكروا بالسبل والوسائل النضالية الممكنة والمتاحة تحت ظلم الاحتلال بأن تصنع منه الجيل الأكثر صلابةً وتمرسًا على العمل. ومنذ بدء الانتفاضة الثانية في سبتمبر ٢٠٠٠، قُتل أكثر من ٢٠٠ طفل وجُرح أكثر من ٧,٠٠٠ طفل ويعاني ٥٠٠ طفل من المصابين بحالات عجز طويل الأمد. وفي الأشهر الأولى من الانتفاضة، قُتل أو جُرح كثيرون على يد الجيش الإسرائيلي. واُستُخدمت الذخيرة الحية والرصاص الفولاذي المغطى بالمطاط والغاز المُسيِّل للدموع لتفريق المتظاهرين، في استخدامٍ مفرط للقوة وغير متناسب مع الأحداث، دون الاهتمام بحياة السكان المدنيين وممتلكاتهم (مركز غزة للحقوق والقانون، ٢٠٠٢م، ص ص ١١٩-١٢٥).

كما جاء في التقرير السنوي الذي أصدرته المنظمة العربية للإصلاح الجنائي أخيرًا، أن عدد الأطفال الفلسطينيين الأسرى في السجون الإسرائيلية ٣٠١ بينهم ٦ فتيات أسيرات، كما يوجد ٤٧٠ أسيرًا كانوا أطفالًا لحظة اعتقالهم وتجاوزوا سن الـ ١٨ عامًا ولا يزالون في الأسر، ويعاني ثلث الأطفال الأسرى تقريبًا أمراضًا مختلفةً ولا يجدون الرعاية الصحية المطلوبة.. أما النساء الأسيرات فيبلغ عددهن ١٢٢ سيدة، منهن ١٦ سيدة لديها أطفال وعددهم ٣٦ طفلًا (جريدة الأهرام، ٢٠٠٦م، ص٢).

ويعيش أطفال العراق حالة من البؤس نظرًا للحرب ولفترتها الطويلة التي عاشوها، حيث تشير التقديرات إلى أن ٢٨٪ من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عام وخمسة أعوام يعانون سوءَ تغذيةٍ مزمنًا، وترتفع هذه النسبة إلى ٣٦٪ لدى الأطفال الذين يعيشون في أسر المُعْوَزين (الصاوي، ٢٠٠٦م، ص١٧).

كما نجد أن إسرائيل، بسبب اعتداءاتها المسلحة المتكررة على لبنان، غالبًا ما تنشر قنابل من أنواع مختلفة في مناطق الاعتداءات، بعضها بشكل ألعاب خاصة للأطفال تنفجر عند تحريكها، كما أنها تزرع مساحاتٍ من مناطق زراعية آهلة بالسكان بالألغام في قضاءَي راشيا والبقاع الغربي اللبنانيَّيْن وحدهما (مرسي ٢، ٢٠٠٥م، ص٥٢).

إن الغالبية العظمى من الأطفال العرب يعيشون بلا طفولة حقيقية ويشيخون قبل الأوان، فهم وقود كل الحروب العربية – العربية، وهم ضحايا الفقر الذي يحرمهم من حقهم في التعليم ويلقيهم مبكرًا إلى أسواق العمل، وحتى الذين تتاح لهم فرص التعليم والترقِّي يقعون ضحايا النظم التعليمية المتخلفة التي تقتل ما في داخلهم من إبداع، وتزرع فيهم الخوف والريبة من الحياة الدنيا (العسكري، ٢٠٠٢م، ص ص ٥، ٤).

ويرى أعداء الأمة أن أطفالنا هم أخيارنا؛ لذا اختاروهم للقتل، ربما لأن أطفالنا أكثر جسارة، وأشد نبلًا، ولأنهم احتياطنا الاستراتيجي؛ لذا كانوا هدفًا للرصاص بالأيدي الصهيونية (العطار، ٢٠٠٤م، ص٦٨).

لقد أفرزت الحرب في الأراضي العربية المحتلة إلى ازدياد عدد الأطفال المشردين، وفي حرب العراق وخلال فترة العقوبات التي سبقتها ظهرت مشكلة أطفال الشوارع والمتسولين، أما في لبنان فقد فاق عدد الأطفال القتلى أعداد القتلى من المحاربين، كما اضطر الأطفال الذين تيتَّمُوا إلى النزوح من مناطق الحرب واللجوء إلى الشارع. فكل الحروب بشعة وأعزل الناس تضررًا من بشاعتها هم الأطفال والنساء.

تقديرات الخسائر للحروب العربية:

منذ فترة طويلة تعيش بعض البلدان العربية حروبًا، سواء أكانت هذه الحروب مع أطراف أجنبية أم حروبًا بينية عربية أو صراعاتٍ داخلية بين بعض نُظُم الحكم وفئات مناهضة لها، وشهد بعضها صراعات طائفية داخل الدولة الواحدة أيضًا.

وعلى مدار النصف الثاني من القرن العشرين ظلت إسرائيل – ولا تزال – هي الهَمّ والتحدي الأكبر للدول العربية؛ حيث كانت سببًا مهمًا في استنزاف الطاقات والموارد العربية الهائلة، وكان من الممكن لو تم استثمار هذه الطاقات والموارد في ظل ظروف سياسية أفضل، وبعيدًا عن الخلافات التي كانت القضية الفلسطينية من العوامل الرئيسة في إثارتها، لكان من الممكن أن تخطو المنطقة العربية على أعتاب القرن الحادي والعشرين وهي قوة ضخمة تستطيع أن تتعامل

بندِّية مع الكيانات الكبرى التي من المعتقد أنها ستسود العالم خلال الفترة المقبلة: الولايات المتحدة – أوروبا الموحدة – اليابان– الصين (الحجري، ٢٠٠٢م، ص٧).

ولقد عاشت المنطقة العربية العديدَ من الحروب، ولعل أبرزها وأقدمها الحرب العربية الإسرائيلية، والتي عرفت أربع محطات رئيسة: حرب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣، والعدوان الإسرائيلي على لبنان في عام ١٩٨٢ والذي انتهى باحتلال الجنوب اللبناني. ولعل أبرز نتائج هذه الحروب الطويلة الاحتلال الكامل لفلسطين، وتدهور أوضاعها الاقتصادية وانتشار معدلات الفقر بين شعبها في غزة والضفة الغربية. كما مرت المنطقة بأزمات الخليج المتعددة الأولى بحرب إيران والعراق والتي استمرت لنحو عشر سنوات، ثم أزمة الخليج الثانية بغزو العراق للكويت، ثم احتلال العراق في مارس من عام ٢٠٠٣. كما كانت هناك الحرب الأهلية في لبنان والتي استمرت خمس عشرة سنة (١٩٧٥ – ١٩٩٠)، والحرب الأهلية في اليمن (١٩٩٤)، والحرب الأهلية في السودان والتي بدأت مع منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، والحرب الأهلية في الصومال التي بدأت منذ أوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

وهذه الحروب لها تكاليفها الاقتصادية المرتفعة، فبالنسبة إلى العراق مثلًا كانت احتياطياته من النقد الأجنبي تُقدر بنحو ٣٢ مليار دولار، ومع انتهاء الحرب الإيرانية العراقية بلغت ديون العراق نحو ٧٠ مليار دولار (الصاوي، ٢٠٠٦م، ص٧)، كما حصدت الحرب الأمريكية – البريطانية أرواح الكثيرين وذلك حسب تقرير مجلة "لانست" البريطانية، فقد تم قتل ٦٥٥ ألف عراقي خلال الأعوام الثلاثة الماضية والنسبة الأعلى كانت خلال عام ٢٠٠٦، حيث تراوح عدد القتلى في بداية العام ما بين ألفَيْ قتيل حتى وصل في نهاية العام إلى ٣,٧٠٠ قتيل شهريًا، وذلك حسب تقارير الأمم المتحدة (فوزي، ٢٠٠٦م، ص٦١).

وفي الحرب الأهلية اللبنانية حصد مسلسل العنف ١٤,٤٢٤ قتيلًا، ١٨٤,٠٥١ جريحًا، ١٧,٤١٥ مفقودًا، ١٣,٩٦٨ مخطوفًا و١٣,٤٥٥ مُعاقًا، كما بلغت خسائر الحرب اللبنانية ٤٥ مليار دولار، وهو ما أثر بالسلب بالطبع على متوسط دخل الفرد والذي انخفض عام ١٩٨٤ بنسبة ٤٠٪ عنه في عام ١٩٧٤، كما ارتفعت نسبة المتعطلين عن العمل من ٤,٥٪ عام ١٩٧٥ إلى ٢١٪ عام ١٩٨٥، كما هاجر قرابة ٤٠٠ ألف شخص لبناني إلى الخارج نهائيًا، وترك قرابة ٤٠٪ من مجموع اللبنانيين أي ٩٠٠ ألف شخص منازلهم (قاعود وعبد القدوس وعبد الخالق، ١٩٩٩م، ص ص٢١، ٢٠).

كما أن الخسائر التي مُنيت بها البلدان العربية من جرَّاء حرب الخليج الثانية قُدرت بنحو ١٦٨,٥ مليار دولار، تمثلت في خسائر عوائد النفط والتجارة والتدفقات المالية والسياحة، وعودة نحو مليونَيْ عامل من العراق والدول الخليجية إلى بلدانهم.

وتشهد الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة عدوانًا صارخًا على الشعب الفلسطيني، يتمثل في تدمير المنازل والزراعات وإغلاق الأراضي الفلسطينية المحتلة في وجه العمالة الفلسطينية، وتدمير البنية الأساسية، فضلًا عن شروع الاحتلال الإسرائيلي في بناء الجدار العازل.

وعلى الرغم من أن اليمن أنهى حروبه في عام ١٩٩٤ فإن نزاعًا مع إرتيريا شبَّ مع نهاية التسعينيات مع مجموعة من الجُزر في البحر الأحمر، إلا أن اليمن لجأ إلى الطرق السلمية لحل هذه الأزمة عبر الأمم المتحدة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليمن يشهد على الصعيد الداخلي نوعًا من عدم الاستقرار من قِبل جماعات العنف، وأيضًا ممارسات بعض القبائل التي تتسم بالعنف وذلك من أجل الحصول على بعض الخدمات الخاصة بالتعليم والصحة (الصاوي، ٢٠٠٦م، ص ص١٧، ١٦).

إن الحروب والنزاعات المسلحة التي يشهدها عديد من دول العالم، وبصفة خاصة المنطقة العربية، والصراع الإسرائيلي – الفلسطيني، والإسرائيلي العربي، والنزاعات المسلحة داخل السودان، والنزاع المسلح الدولي في العراق، أدت إلى تحويل معظم موازنات تلك الدول لصالح قضايا الدفاع والأمن الداخلي؛ الأمر الذي انعكس بالسلب على مخصصات التعليم والصحة للأطفال؛ وجعل انخراط الأطفال في العمل المسلح بأشكاله المختلفة، فرصةً مُثلَى للحصول على الخدمات الأساسية.

ويمكن القول أنه رغم الخسائر الاقتصادية والسياسية والبشرية التي مُنيت بها المنطقة العربية بسبب زرع دول غريبة عنها في قلبها، فإن هناك فائدةً أخرى غير مباشرة وهي إيقاظ الوعي القومي وإدراك أن المعركة مع إسرائيل هي حضارية في المقام الأول.

وعليه، تبقى قضية العراق حالةً واضحةً في تشابك مشكلة الحرب والفقر، فالعراق لم ولن يكون فقيرًا في ظل موارده، ولكن سلسلة الحروب التي مرَّ بها جعلت منه بلدًا مَدِينًا بعد أن كان لديه فائضٌ من احتياطي النقد الأجنبي، والذي نستطيع قوله أن العراق أُفقِر من خلال الحرب وحتى بعد ثلاث سنوات من وقوع العراق تحت الاحتلال، لم يتم التوصل إلى صورة تجعل منه

بلدًا مستقرًا باستطاعته تنفيذ خطة للنهوض بأبناء الشعب من وطأة الفقر والعَوَز التي حلت بهم.

الأطفال ومشاهد الحروب من منظور نفسي:

كثُرت الحروب والنزاعات في عصرنا الحاضر، وكثرت معها الخسائر البشرية والمادية التي لحقت بالشعوب جراء استخدام التقنيات الحديثة؛ ولكننا لو نظرنا إلى ما يترتب على هذه النزاعات من آثار ورواسب سنرى أن ذلك لا يعتبر مقتصرًا فقط على الجيوش المشاركة في المعركة وعلى هزيمتها العسكرية فحسب، بل إن ذلك يمتد إلى ظهور العديد من التأثيرات النفسية والاجتماعية الخطيرة التي تُلحق الضرر بجيوش أخرى من نوعٍ آخر، وهم الأطفال الأبرياء البعيدون عن ميدان المواجهة المباشرة، وقد تختلف هذه التأثيرات البادية عليهم باختلاف المراحل العمرية التي يمرون بها، حيث يمليون إلى التعبير عن الواقع المحيط بهم بتلقائية وعفوية وبشتى الطرق، ويُظهرون سلوكياتٍ غير مألوفة من قبل تنمُّ عن وجود اضطرابات في النظام الحياتي النفسي للطفل.

والخوف من الغد أو من المستقبل، وعدم الإحساس بالأمان، وعدم قدرة رَبّ العائلة "الأم أو الأب" على بسط حمايته، هي أحاسيس يتميز بها الأطفال الذين يعيشون أجواء الحروب؛ فهم يدركون أن هؤلاء الكبار لا حول لهم ولا قوة، وأن قدراتهم أقل بكثير مما كانوا يعتقدون؛ وخاصة عندما يلمحون نظرات الذعر ودموع الخوف في عيون هؤلاء الآباء والأمهات.

وتولِّد هذه الأحاسيس لدى الأطفال خوفًا دائمًا من الغد، وعدم القدرة على الحلم والتخطيط للمستقبل؛ لأن كل شيء قد يضيع في لحظة.. والمثير أن هؤلاء الأطفال يرفضون بعد فترة نظرات الشفقة والحب من الآخرين، بالرغم من أنهم يفتقدون الحب والأمان والحنان، ويميلون للتشاؤم والضيق واليأس، بالإضافة إلى المشكلات الدراسية في مدارسهم؛ حيث نجدهم أكثر ادِّعاءً للمرض، ومُشتَّتي الذهن ومشوَّشي الأفكار؛ مما يؤدي إلى انخفاض مستوى تحصيلهم بشكل عام.

ويجب أن يخضع هؤلاء الأطفال لبرامج إعادة تأهيل اجتماعي، وعلى القائمين على هذا البرنامج أن يتحلوا بالصبر الشديد والأناة ولا يتعجلوا النتائج، فصوت المدافع والانفجارات في ذاكرة هؤلاء الأطفال قد يغطي على صوت النصائح التي يتلقونها (مجلة المرء اليوم، ٢٠٠٣م، ص٣٣).

ولا يختلف الأمر كثيرًا عند الحديث عن ذوي الاحتياجات الخاصة الذين يعانون تأخرًا في القدرات العقلية أو السمعية أو الحركية، كونهم فئة حية تعيش نبض الواقع الذي تفرضه عليهم التغيرات السياسية المحيطة بهم بكل مفرداتها.

وهذا ما يتضح جليًا عند الحديث عن المشاعر الانفعالية والنفسية التي يمر بها الأطفال المعاقون في فلسطين في ظل الانتفاضة، وما واكبها من سياسات القتل الجسدي والترويع النفسي المرتكبة في حق المجتمع الفلسطيني، حيث تكشَّفت هذه المظاهر السلوكية الجديدة بعد الملاحظة السلوكية اليومية لهؤلاء الأطفال سواء في مؤسسات الرعاية والتأهيل الخاصة بهم أم في البيت، وكذلك بعد تحليل الأنشطة التي يمارسونها بما فيها الرسم، وتتبُّع التغيرات التي طرأت على طبيعة ألعابهم، واستمزاج آراء أولياء أمورهم والمحيطين بهم حول هذه التغيرات.

وقد لوحظ وجود حالات من التبوُّل اللاإرادي عند مجموعة من الأطفال من ذوي الإعاقات السمعية والذهنية والتي لم تكن موجودة قبلًا، وقد يرتبط هذا بحالة الخوف والذعر التي أصابتهم وعدم شعورهم بالأمن، وتزداد حالة القلق والخوف هذه عند اقتراب الظلام واقترانه بالقصف الليلي وإطلاق النار؛ مما يبرر رفض مجموعة من الأطفال النوم بمفردهم.

وفي الوقت ذاته، ظهرت لدى البعض الآخر منهم عاداتٌ جديدة، مثل قضم الأظافر، والتي تعتبر انعكاسًا لحالة القلق التي تشغل بال الطفل؛ وكذلك عادة مَصّ الأصابع والتي تُظهر حاجةً لدى الطفل تتمثل في رغبته بالنكوص والتراجع لمرحلة عمرية سابقة كانت بالنسبة إليه أكثر أمنًا واستقرارًا.

أما حالات الانطواء والانعزال التي ظهرت عند مجموعة من ذوي الإعاقة الذهنية، فكانت مصاحبة لحالة من الشرود الذهني والسَّرَحان واللامبالاة وعدم الاكتراث بالواقع المحيط ومحتوياته، حتى الألعاب التي اعتاد الأطفال على ممارستها ما عادت تجذب انتباههم؛ مما يدلل على وجود تغيير في اهتمامات الطفل رغم اعتناقه، نتيجة الواقع المؤلم الذي يعيشه.

كما نجد ظهور الأحلام المزعجة والكوابيس عند هؤلاء الأطفال المعاقين، والذين كانوا يتحدثون عنها لأمهاتهم وإخوتهم، وغالبًا ما يدور موضوعها حول المشاهد اليومية المؤثرة التي يرونها سواء على شاشة التلفاز أم على أرض الواقع، والتي تتمثل بالممارسات الوحشية التي تُرتكب بحق الآخرين؛ مما زاد تخوُّفهم من وصول رصاص جيش الاحتلال الصهيوني إليهم كما وصل للعديد من الأطفال الأبرياء الذين كانوا متوجهين إلى مدارسهم؛ الأمر الذي يفسر ارتفا ع

مستوى غياب الأطفال عن مدارسهم (عبدات، ٢٠٠٣م، ص ص ٤٥، ٤٤).

ويجد الأطفال في التلفزيون مشاهد عديدة للنزاعات المسلحة التي تتسابق بعض القنوات الفضائية إلى عرضها، إذ يشاهد الأطفال أطفالًا تقل أعمارهم عن ثماني عشرة سنة مجندين ومقاتلين في نزاعاتٍ مسلحة، على رغم أن ذلك محرم دوليًا، إذ يبلغ عدد الأطفال المجندين في العالم اليوم مئات الآلاف. ويجد الأطفال في الواقع التلفزيوني الذي تشكله الفضائيات للنزاعات المسلحة أطفالًا لاجئين مع ذويهم أو آخرين افتقدوا الأهل والأرض، إذ يزيد عدد اللاجئين من الأطفال اليوم على نصف أعداد مجمل اللاجئين في العالم. ويشاهد جمهور التلفزيون من الأطفال أقرانًا لهم قتلى تُلقى أجسادهم في ساحات المعارك، وآخرين بُترت أعضاؤهم بسبب المقذوفات. كما يشاهدون أطفالًا يتعرضون لظروف قاسية ومعاملة سيئة، مثلما يشاهدون أطفالًا رسم الفقر والجوع على وجوههم وأجسادهم علاماتٍ بارزة. ويشاهد جمهور الفضائيات من الأطفال أطفالًا لا يجدون لُعبًا غير أن يلعبوا بالألغام التي يغرسها المتنازعون في بؤر النزاع، تلك الألغام التي سرعان ما تنفجر في وجوه اللاعبين الصغار. ويشاهد جمهور الفضائيات من الأطفال مئات المشاهد العنيفة في عالم نزاعات الكبار مثلما يشاهدون الموتى الذين تتركهم الحروب ضحايا، وقد انتفخت أجسادهم أو تقاطرت منها الدماء، مثلما يشاهدون أعمال العنف الأخرى والتعذيب والاعتقال والترحال (مرسي ٢، ٢٠٠٥م، ص٥٣).

وهكذا يتعرض الأطفال إلى أعمال العنف والرعب ومن ثَمَّ ينتشر القلق في نفوس الأطفال وتزيد مخاوفهم، وعلى هذا فإن الأطفال ضحية للعنف والنزاعات المباشرة؛ حيث يلاقون الموت والإصابات والخوف والدمار، بسبب المشاركة في النزاعات المسلحة، وهم حين يكونون جمهورًا للتليفزيون؛ يتأثرون بما يعرض عبر شاشته على مستوى المشاعر، والتفكير، والسلوك. وقد ثبت أن برامج العنف والنزاعات المسلحة من أكثر الموضوعات تأثيرًا في الطفولة (الهيتي، ٢٠٠٣م، ص١٣٧).

إن أطفال العالم العربي يتعرضون مثلما كثير من أطفال العالم لتأثيرات النزاعات المسلحة بصورة مباشرة، ويتعرضون أيضًا لمَشاهِد الكثير من النزاعات عبر الفضائيات.

حماية الأطفال من الحروب والنزاعات المسلحة:

المفزع في أسلوب حرب اليوم أن أصبح المدنيون أهدافًا مقصودة من أهداف الحرب،

بدلًا من أن يكونوا ضحايا يسقطون عَرَضًا في هذه الحروب، والنساء والأطفال على وجه الخصوص يستهدفون عن قصد حيث يواجهون القتل والاغتصاب والاختطاف وتقطيع الأطراف والتهجير. وفي حرب اليوم أيضًا لم تعُدِ القوات المسلحة الحكومية وحدها هي التي تحارب، بل ظهرت وحدات الميليشيات والجماعات المتمردة والأشخاص المبعدون الذين يجبرون على القتال، إضافة إلى أنماط أخرى غير تقليدية من المحاربين.. فلقد أصبحت الخطوط الفاصلة بين المدنيين والعسكريين المحاربين باهتة، سواء كضحايا للحروب أم كمتسببين فيها.

وإذا كانت جراح الحرب دائمًا قاسية فإن جراح حرب اليوم بما شهدته من تحولات، من حيث الكَمِّ والكيف في إطلاق الحروب أصبحت أكثر تعقيدًا واستطالة عبر الزمن، حيث يظل المدنيون يتعرضون ويعانون على مدى سنوات وأحيانًا على مدى أجيال، ولعل المناطق الأكثر سخونةً في العالم التي تقع في قارتَيْ أفريقيا وآسيا خير دليل (باشا، ٢٠٠٦م، ص ص٥٢-٥٤).

ويحتاج الأطفال إلى حماية خاصة في حالات النزاع المسلح، فالأطفال هم أكثر الفئات تضررًا في حالات الحروب والنزاعات المسلحة. ولقد تسببت الحروب في قتل أو جرح أو تشريد أعداد كبيرة منهم، ولم يَرَ ملايين آخرون عائلاتهم أبدًا، هذا فضلًا عن أن الكثير منهم لن يجدوا سبيلًا للنمو بشكل طبيعي.

ولقد بدأ الاهتمام بحماية الأطفال أثناء النزاعات المسلحة بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث لم يعُد من الممكن، بعد ويلات هذه الحروب، تجاهل وضع أُطُر لحماية الأطفال. وقد أدت جهود اللجنة الدولية للصليب الأحمر في هذا المجال إلى اعتماد اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، ولا سيَّما اتفاقية جنيف الرابعة حول حماية المدنيين في الحروب؛ إلا أنه على الرغم من اعتماده هذه الاتفاقية، ظل الأطفال عرضة للنزاعات المسلحة، مثل المدنيين الراشدين.

وهناك اتفاقيات ومعاهدات تحظر أسلحةً أو خططًا عسكرية معينة أو تحمي بعض الفئات من الأشخاص أو المنشآت، وتشمل على سبيل المثال لا الحصر (إسماعيل، ٢٠٠٦م، ص٤٢):

١- اتفاقية لاهاي لعام ١٩٥٤ لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح وبروتوكولاتها.

٢- اتفاقية عام ١٩٧٢ بشأن الأسلحة البيولوجية.

٣- اتفاقية عام ١٩٨٠ بشأن استخدام بعض الأسلحة التقليدية وبروتوكولاتها.

٤- اتفاقية عام ١٩٩٣ بشأن الأسلحة الكيميائية.

٥- معاهدة أوتاوا لعام ١٩٩٧ بشأن الألغام المضادة للأفراد.

٦- البروتوكول الاختيارى لعام ٢٠٠٠ بشأن حظر مشاركة الأطفال في النزاعات المسلحة. ولقد نصت المادة ٣٨ من اتفاقية حقوق الطفل على التالي:

- تتعهد الدول الأطراف بأن تحترم قواعد القانون الإنساني الدولي المنطبقة عليها في المنازعات المسلحة وذات الصلة بالطفل، وأن تضمن احترام هذه القواعد.
- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير الممكنة عمليًا؛ لكي تضمَن ألَّا يشترك الأشخاص الذين لم تبلغ سنُّهم خمس عشرة سنة اشتراكًا مباشرًا في الحرب.
- تمتنع الدول الأطراف عن تجنيد أي شخص لم تبلغ سنُّه خمس عشرة سنة في قواتها المسلحة. وعند التجنيد من بين الأشخاص الذين بلغت سنهم خمس عشرة سنة، ولكنها لم تبلغ ثماني عشرة، يجب على الدول الأطراف أن تسعى لإعطاء الأولوية لمن هم أكبر سنًا.
- تتخذ الدول الأطراف، وفقًا لالتزاماتها بمقتضى القانون الإنساني الدولي بحماية السكان المدنيين في المنازعات المسلحة، جميع التدابير الممكنة عمليًا لكي تضمن حماية ورعاية الأطفال المتأثرين بنزاع مسلح.

والجدير بالذكر أن الإعلان العالمي لبقاء الطفل وحمايته لعام ١٩٩٠ قد أكد أهميةَ حماية الأطفال من ويلات الحرب، وحث الدول على اتخاذ التدابير لمنع نشوب نزاعات مسلحة جديدة، وذلك بغية توفير مستقبل سلمي وآمِن للطفل، وتعزيز قيم السلم والتفاهم والحوار في تعليم الأطفال، وحماية الاحتياجات الأساسية للأطفال والأسر في أوقات الحرب وفي المناطق الرازحة تحت وطأة العنف، وضرورة الالتزام بفترات هدوء وبتوفير منافذ للإغاثة الخاصة لصالح الأطفال، حيث تكون الحرب والعنف محتدمين.

وفي عام ١٩٩٣، تبنَّت لجنة الأمم المتحدة لحقوق الطفل توصيةً لوضع بروتوكول اختياري ملحق باتفاقية حقوق الطفل، بهدف رفع الحد الأدنى لسن مشاركة الأطفال في النزاعات المسلحة إلى الثمانية عشر، كما أشار الإعلان العربى لحقوق الطفل الصادر عام ٢٠٠١ إلى معاناة أطفال فلسطين من الممارسات الإسرائيلية العدوانية الموجهة لقتل الأطفال وإصابتهم بعاهات مستديمة وعدم توافر آليات لحمايتهم، وإهدار إسرائيل لكل القيم وحقوق الإنسان والمواثيق الدولية، ورفضها الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة وإقامة السلام العادل طبقًا لقرارات الشرعية الدولية، وهو ما يزيد من معاناة السكان العرب تحت الاحتلال ويحرم أطفالهم من كل الحقوق التي أرستها الشرائع السماوية والقانون الإنساني (زيدان، ٢٠٠٥م، ص١٩).

إن إسرائيل تنفذ مخططًا لإبادة الشعوب العربية بصفة عامة والشعب الفلسطيني بصفة خاصة، وتسابق الزمن لتنفيذ مخططاتها، ضاربةً عُرْض الحائط بالقوانين والاتفاقيات الدولية التي تكفل الحماية والأمن للفلسطينيين تحت الاحتلال والحصار، وهذا ما يمثل انتهاكًا خطيرًا لمبادئ القانون الدولي الإنساني، دون أن تتحرك القوة المؤثرة في العالم لكي تعاقب المعتدي أو تعمل جاهدةً لوقف عدوانه.

ولقد أقرت الشريعة الإسلامية قواعد سامية لحماية الأطفال أثناء النزاعات المسلحة، وقد أرسى الرسول صلى الله عليه وسلم أُسُس شريعة القتال، فلم يُجِز قتال الصغار والنساء والشيوخ والصبيان والمرضى وأصحاب العاهات والعَجزَة عن القتال والفلاحين في حرثهم والرهبان والعبَّاد. ذلك أن الحرب في الإسلام هي ضرورة مُلجِئة محصورة في نطاق معين ومحدد في غاية ضيقة، وهي مقصود الجهاد، وقد وضح ذلك من حرب المسلمين في صدر الإسلام والعهود التالية، فلم يقاتل المسلمون إلا من قاتلهم.

وقد نهي رسول الله – عن قتال الأطفال. وعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: "انطلقوا باسم الله وعلى ملَّة رسول الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا صغيرًا ولا امرأة"(١)، وقد أجمع الفقهاء على تحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا، قال جماهير العلماء يُقتلون.

وعلَّة الجهاد في الإسلام ليست الكفر وإنما المحاربة والتي لا تحقق فيمن لم يقاتل المسلمين. والنص القرآنى "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (سورة التوبة، الآية: ٥).

وقد سُئل الإمام مالك عن نساء العدو وصبيانهم يكونون على الحصون يرمون بالحجارة ويعيثون على المسلمين يُقتلون؟ فقال: نهى رسول الله – عن قتل النساء والصبيان بحال حتى ولو تترَّس أهل الحرب بهم لم يجُز رميهم ولا تحريقهم. ويُلاحظ إن هذا الرأي صحيح إذا كان المقصود من الترس هو الدفاع والاحتماء، أما إذا كان بغرض التحصين والهجوم ويعرف ذلك بالقرائن والإمارات؛ فلا بُدَّ من القول بجواز قتلهم لاقتضاء المصلحة ذلك.

وقد أقرَّت الشريعة الإسلامية إجراءات لصالح الأطفال أثناء النزاع المسلح. فقد نهى الرسول ﷺ عن التفريق بين الأم وولدها، فقد قال الرسول ﷺ: "من فرَّق بين أُمٍّ وولدها فرق

١ – أخرجه أبو داود، ح (٢٦١٤).

الله بينه وبين أحبَّته يوم القيامة"(٢).

وإذا كانت قواعد القانون الدولي الإنساني لا تجيز تجنيد الأطفال في القوات المسلحة قبل بلوغ الخامسة عشرة، فإن الإسلام لا يوجب الجهاد على الصبي لضعف بنيته؛ ولذلك (فقد رد رسول الله ﷺ البراء بن عازب وغيره يوم بدر ممن لم يبلغوا خمس عشرة سنة). وقد رُوي عن ابن عمر – رضي الله عنه –، قال: (عُرضت على رسول الله ﷺ يوم أُحُد وأنا ابن أربعة عشر فلم يُجِزْني في المقاتلة) (آل خليفة، ٢٠٠٦م، ص ص٣٩، ٣٨).

إن الإسلام يحرِّم قتل من لا يشتركون في النزاعات المسلحة ويحافظ على الأسرة ويحرص على حقوق المدنيين، وهي نفس الحقوق التي أقرها القانون الدولي الإنساني.

خاتمة:

إن الحروب والنزاعات المسلحة أفعال عدوانية، تكون النفوس البشرية أغلى ضحاياها، بمن فيهم نفوس الأطفال، وإذا كانت البشرية تهفو إلى وقف هذه النزاعات وسيادة السلام بين الجماعات والمجتمعات المختلفة، فإن ذلك لا يتحقق بإلقاء السلاح فحسب، بل بتوفير ظروف حياة جديدة، قوامها الحياة النفسية والعاطفية السليمة، التي لا يمكن البدء في بنائها إلا من خلال سلوك الأطفال بناءً سليمًا، وتكوين شخصياتهم وفق أسس مرنة وواقعية وموضوعية، بعيدًا عن التعصب والنظرة العدوانية.

ولقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات؛ منها ما يلي:

- أن تقوم جامعة الدول العربية ببذل كل الجهود لعقد اجتماع للدول الأطراف في اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، وذلك لحمل إسرائيل على تنفيذ التزاماتها بموجب هذه الاتفاقيات؛ وخاصةً المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب والاحتلال، والتي تنتهكها إسرائيل منذ أكثر من خمسين عامًا.
- العمل على تشجيع الدول على إبرام المعاهدات التي تضمن حماية حقوق الأطفال.
- العمل على تفعيل دور المنظمات الدولية والإقليمية المعنية بحماية الأطفال في النزاعات المسلحة.
- العمل على سَنِّ القوانين التي تمنع انخراط الأطفال في الجيوش.

٢ – رواه الترمذي (١٢٠٤) وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي .

- وضع آليات لحل النزاعات المسلحة، وتوفير قوات حفظ السلام ومحاكمة المسئولين عن انتهاكات حقوق الطفل، ورفع الحصانة عن مجرمي الحرب، والعمل على رفض الحروب.
- العمل على ضمان توفير التعليم بالنسبة إلى الأطفال في ظل النزاعات المسلحة، والأطفال اللاجئين كضمان لمستقبلهم واندماجهم في المجتمع.
- ضرورة توفير الرعاية الصحية للأطفال المتأثرين بالنزاعات المسلحة.
- العمل على اشتراك الأطفال في عمليات المصالحة وبناء السلام ونبذ النزاعات المسلحة.
- الاهتمام بالنساء ووضعهن في النزاعات المسلحة؛ خاصة وإنهن يعانين بشكل كبير نتيجةً للصراعات والنزاعات المسلحة.

المراجع:

(١) آل خليفة، خالد بن علي (٢٠٠١م): "حماية الطفل في النزاعات المسلحة"، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد ١، العدد ٤، المجلس العربى للطفولة والتنمية، القاهرة.

(٢) إسماعيل، كريم (٢٠٠٦م): "نحو نزاعات مسلحة أكثر إنسانية (١)"، مجلة النصر، السنة ٤٩، العدد ٨١٠، إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة، القاهرة.

(٣) الحجري، ضياء (٢٠٠٢م): إسرائيل من الداخل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٤) السعدي، غازي (١٩٩٥م): مجازر وممارسات، دار الخليل للنشر، عمان.

(٥) الصاوي، عبد الحافظ (٢٠٠٦م): "الفقر والحرب.. ثنائية العدوان على الإنسان العربي"، مجلة الوعي الإسلامي، السنة ٤٣، العدد ٤٨٩، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت.

(٦) العسكري، سليمان إبراهيم (٢٠٠٢م): "الطفل العربى ومأزق المستقبل"، في: ثقافة الطفل العربي، كتاب العربي، العدد ٥٠، مجلة العربي، الكويت.

(٧) العطار، محمد محمود (٢٠٠٣م): "عالم صغير جدًا جدًا"، المجلة العربية، السنة ٢٨، العدد ٣١٦، المملكة العربية السعودية.

(٨) العطار، محمد محمود (٢٠٠٤م): "هموم الطفل الفلسطيني من منظور نفسي تربوي"، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد ٤، العدد ١٤، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.

(٩) العطار، محمد محمود (٢٠٠٦م): الدستور وأطفال الشوارع، مجلة رواق عربي، العددان ٣٨ – ٣٩، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة.

(١٠) الهيتي، هادي نعمان (٢٠٠٣م): "النزاعات المسلحة.. من تأثيراتها المباشرة في الأطفال، إلى تأثيرات الفضائيات فيهم"، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد ٣، العدد ٩، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.

(١١) باشا، هبة محمد (٢٠٠٦م): "أمهات في زمن الحرب"، مجلة نصف الدنيا، السنة ١٧، العدد ٨٤٠، مؤسسة الأهرام، القاهرة.

(١٢) جريدة الأهرام (٢٠٠٦م): السنة ١٣١، العدد ٤٣٧٨٢، مؤسسة الأهرام، القاهرة.
(١٣) زيدان، فاطمة شحاتة (٢٠٠٥م): "الحماية الدولية للأطفال في النزاعات المسلحة"، مجلة السياسة الدولية، السنة ٤١، العدد ١٥٩، مؤسسة الأهرام، القاهرة.
(١٤) سلطان، غانم (٢٠٠٦م): "هل يستطيع العالم أن يتجنب الحروب والنزاعات المسلحة؟"، مجلة العربي، العدد ٥٦٨، وزارة الإعلام، الكويت.
(١٥) عبدات، روحي (٢٠٠٣م): "الأطفال المعاقون الفلسطينيون في ظل واقع انتفاضة الأقصى"، مجلة المنال، العدد ١٧٤، مدينة الشارقة للخدمات الإنسانية، الإمارات العربية المتحدة.
(١٦) عبد الهادي، عبد العزيز مخيمر (١٩٩٣م): "اتفاقية حقوق الطفل خطوة إلى الأمام أم إلى الوراء"، مجلة الحقوق، السنة ١٧، العدد ٣، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
(١٧) فوزي، أمل (٢٠٠٦م): "٢٠٠٦ عام المشاهد السياسية الدامية"، مجلة نصف الدنيا، السنة ١٧، العدد ٨٨١، مؤسسة الأهرام، القاهرة.
(١٨) قاعود، علاء وعبد القدوس، نادرة وعبد الخالق، عبد الرحمن (١٩٩٩م): الأطفال والحروب حالة اليمن، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة.
(١٩) مجلة المرأة اليوم (٢٠٠٣م): "ذئاب يغتالون الطفولة"، العدد ١١٢، المؤسسة العربية للصحافة والنشر والتوزيع، أبو ظبي.
(٢٠) مجلة نصف الدنيا (٢٠٠٦م): السنة ١٧، العدد ٨٦٠، مؤسسة الأهرام، القاهرة.
(٢١) مرسي١، محمد مرسي محمد (٢٠٠٥م): "تأثيرات النزاعات المسلحة في الأطفال من خلال الفضائيات"، مجلة الفيصل، العدد ٣٤٤، دار الفيصل الثقافية، المملكة العربية السعودية.
(٢٢) مرسي٢، محمد مرسي محمد (٢٠٠٥م): "تجنيد الأطفال في الحروب وأثر مشاهد النزاعات المسلحة عليهم"، مجلة الحرس الوطني، السنة ٢٧، العدد ٢٨١، رئاسة الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.
(٢٣) مركز غزة للحقوق والقانون (٢٠٠٢م): "انتهاكات حقوق الأطفال الفلسطينيين"، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد٢، العدد ٨، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.
(٢٤) يوسف، أشرف عبد العزيز (٢٠٠٢م): "الحماية الدولية للطفل في قانون المنازعات المسلحة ودور التشريع الوطني المصري في تفعيلها"، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد٢، العدد ٨، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.
(25) https://undocs.org.ar/s
(26) https://www.unicef.org/s